ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

مظاهر الحنين في الشعر الزياني "حاضرة تلمسان أنموذجا"

Manifestations of nostalgia in Zayani poetry, "Tlemcen's present as an example

د. درار نزيهة Dr. Derrar Naziha Imene-13@hotmail.com	أدب عربي	مختبر الخطاب التواصلي الجزائري الحديث، قسم اللغة العربية وآدابها، المركز الجامعي بلحاج بوشعيب –عين تموشنت-الجزائر.

DOI : 10.46315/1714-009-003-030

الإرسال: 2019/07/16 القبول: 2020/05/06 النشر: 2020/06/16

ملخص: (عربية)

يتناول هذا البحث الحنين في الشعر الجزائري القديم "تلمسان أنموذجا" فاقتصرت الدراسة على رصد مظاهر الحنين عند شعراء المائة السابعة وكل ما يتعلق بحاضرة تلمسان. فلطالما حن ابن خميس إلى تلمسان وهو في ديار الغربة فذكر الوريط وساقية الرومي والقيصارية، حيث تذكر أيام الود والوصال بمدينته الحبيبة، وغير بعيد عليه السلطان الزياني أبو حمو موسى وهو يصور لنا مدينة تلمسان في صورة المرأة الفاتنة وهو صبي يحن إلى الصبا واللعب. ودلت النتائج على مدى ألم الشعراء وهم في الغربة.

كلمات مفتاحية: الحنين؛ الشعر؛ الزياني؛ تلمسان؛ المائة السابعة.

Abstract: (English)

This study deals with nostalgia in the old Algerian poetry "Tlemcen" model, the study was limited to monitor the manifestations of nostalgia among the poets of the seventh century and everything related to the city of Tlemcen. The son of Khamis has long lived in Tlemcen, and he is in the land of exile. He mentioned Al-Wariyat, Saqiya Al-Roumi and Al-Qaysariya, where he remembers the days of friendship and connection in his beloved city and not far from Sultan Zayani Abu Hamo Musa. The results showed the pain of the poets in the alienation.

Keywords : Al-Zayani; Tlemcen; the seventh century.

1- تمهيد

يمثل شعر الحنين الغريزة أو الملكة للإنسان فهو يشتاق إلى وطنه، وهو قريب، ويحن إلى أهله وأقاربه وهو بعيد، فكان هذا الغرض الشعري دافعا لنا للغوص أكثر في أدبنا الجزائري للوقوف على بعض المدونات الشعرية الجزائرية القديمة، رغبة في إبراز التراث الجزائري، معتمدة في ذلك على المنهج الوصفي التحليلي، ومن الإشكاليات المتولدة عن هذه الدراسة: كيف تجلى الحنين إلى مدينة تلمسان في الشعر الزياني؟

الحنين في الشعر الزياني:

يعد الحنين طبيعة إنسانية تتولد في النفس البشرية من خلال حبه وإعجابه لأرضه، فهي تستقطب كل تفكيره، ولم يقتصر الحنين على الإنسان فحسب بل تعدى ذلك إلى العنصر الحيواني فتجل ذلك في" حنين الإبل إلى أوطانها ومعاطنها" (الجبوري، 2008، صفحة المقدمة) فارتبط حنين الأوطان بكرامة واعتزاز الإنسان، وكانت الغربة أهم شيء يشغل باله ((الجبوري، 2008، صفحة 9) ، فهو يعبر عن معنى ارتباط الفرد بوطنه وطبيعته (تيجيني، المحور الأول سبتمبر 2018، صفحة 49).

وظهر شعر الوطن منذ القدم منذ أيام العصر الجاهلي مع الصعاليك ليتعداه في عصر صدر الإسلام مع الرسول صلى الله عليه وسلم واشتياقيه إلى مكة بعد هجرته إلى المدينة.

وكثير يقول بأن فطرة الإنسان معجونة بحب الأوطان: " فالحنين من رقة القلب ورقة القلب من الرعاية والرعاية من الرحمة والرحمة كرم الفطرة وكرم الفطرة من طهارة الرشد، ومن علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسها تواقة" (الجاحظ، 1986، الصفحات 9-10)

تشتمل كلمة الوطن على الديار والأهل والمنازل والتربة والبرق والرعد والماء والأنهار، فالشاعر الزياني الجزائري كان سباقا في شعر الغربة والاغتراب، فحن إلى تلمسان وكل ما يتعلق بهذا المكان من قريب ومن بعيد.

أ-الحنين إلى المدينة:

يتذكر الشاعر أبو حمو أيام صباه ولعبه في رياض بلدته، يقول" بحر الرجز" :

أوَ مَا رأيتُ الرَّوضَ أمْسى مُقْفَرًّا***لَعِبتْ بِهِ ريحُ الصِّبا والشّمال

في صورة حنينية رائعة معبرة عن شوق ابن خميس لبلدته وهو في الأندلس، مستعملا الطيور والرياح في عباراته على سبيل الاستعارة المكنية، يقول "بحر الطويل" :

يَطيرُ فُؤادِي كلَّمَا لاحَ لامعٌ *** ويَنْهلُ دَمعِي كلَّما نَاح صادحُ

فَفي كلِّ شَفرٍ من جُفونِي مائحٌ *** وفي كلِّ شَطْرٍ منْ فُؤادي قَادحُ

(بن منصور، 1365، صفحة 85)

استعان الشاعر بالطيور لنقل مشاعره وأحاسيسه لتلمسان، فكلما هبت الرياح طار معه الشوق، وينهل دمعه كلما رأى طيرا، ففي كل جفن دمع مالح قارح يبكي غربة وحنينا إلى تلمسان، وفي المعنى نفسه يقول:

أطارَ فؤادِي برقٌ ألاحَا***فما (هزّ) بعد لو كرّ نجاحَا

كأنَّ تألّقُه في الدُّجا***حسامٌ جبانٌ في الكفاحَا

أضاءَ وللعينِ إغفاءةٌ***تلذُ إذا ماسنا الفجرُ لاحَا

(بن منصور، 1365، صفحة 89)

يصور لنا فؤاده في صورة الطائر المكسور الجناح المغلوب على أمره تارة، وتارة أخرى في صورة الجندي المكافح صاحب الحسام الصقيل، لكن ليس له حل سوى الاستسلام. فهو يسأل الريح عن أخبار مدينته، فلعلها حاملة أنباء من الغرب الجزائري، ففي خفقان البرق إشارة إليها، يقول "بحر الطويل":

سلِ الرّيحُ إن لم تسعدْ السفنُ***فعندَ صباها من تلمسانَ أنباءُ

ففي خفقانِ البرقِ منها إشارةٌ***إليك بما تتمنَّى إليك وإيماءُ

(بن منصور، 1365، صفحة 62)

فقد جسد الريح وشخصه في صورة الإنسان وهذه سمة فنية لافتة.

فيهدي إليها كل يوم تحية فعسى أن تتجاوب معه في رد التحية، ويفترض أن خيالا من طيفها يمر به فهو يراها في كل مكان، فتلمسان بعيدة عن عيناه لكنها قريبة من قلبه، فهو كثير الاشتياق لها يقول "بحر الطويل":

وأهدِي إليها كلَّ يومٍ تحيةٍ*** وفي ردِّ إهداءِ التحيةِ إهداءُ

وكيف خلوصَ الطيفِ منها وطونِها***عيونَ لها في كلِّ طالمةِ راءُ

وإني لمشتاقُ إليها ومنبئٍ*** ببعض اشتياقِي لو تمكن إنباءُ

(بن منصور، 1365، صفحة 63)

فكم حلبت عشاقا وكم فتنوا بحبها وغرامها لدرجة الموت من أجلها، يقول "بحر الطويل" :

وكم قاتل تفنَّى غرامًا بحبِّها*** وقد أخلقت منها ملاءُ وأملاءُ

(بن منصور، 1365، صفحة 63)

فهي صورة مشرفة تبهر العين بلباسها وحلتها، فتمر الليالي وهو ينتظر سماع أخبارها، ففي كل ليلة يحن لها، حيث تستهويه تلمسان فصور لنا بلدته وكأنها نجم في السماء يستهوي كل واحد فينا يقول "بحر الطويل":

تمرُّ اللّيالي ليلةً بعد ليلةٍ*** وللأذنِ إصغاءُ وللعينِ إكلاءُ

وإنِّي لأصْبو للصِّبا كلَّما سرت***وللنجْم مهما كانَ للنَّجم إصباءُ

(بن منصور، 1365، صفحة 62)

ففي قلبه نار تشعل جوانحه، ودمع يكتسح عيناه، فلا طيف يصبره على شوقه ولا نجم جانح من الغرب الجزائري، يقول "بحر الطويل" :

فما الماءُ إلا ما تسِحُّ مَدامعي*** وما النارُ إلا ما تجنُّ الجوانحُ

خليليّ لا طيَف لعلوةِ طارقُ*** بليلٍ ولا وجهَ لصبحِي لائحُ

نظرتُ فلا نورَ من الصبحِ ظاهرُ*** لعيني ولا نجمَ إلى الغربِ جانحُ

(بن منصور، 1365، صفحة 85)

وكأنه يستعمل الطير الجانح للتعبير عن أشواقه وناره المكبوتة في داخله، فالقرح والدمع يلهب نار ضلوعه حنينا وشوقا لبلدته، يقول:

أنَّى تستفيضُ دموعِي امتياحَا***ويلهبُ نارَ ظلوعِي اقتراحَا

(بن منصور، 1365، صفحة 89)

فكفى خصاما وسامحيني، لقد تعبت من كتمان حبك، فدمعي قد فضحني، هذه هي كلمات الحب التي صرح بها ابن خميس لمحبوبته تلمسان، يقول "بحر الطويل" :

بحقّكِما كفا الملامْ وسامحَا*** فما الخلُ كل الخلِّ إلاّ المسامحُ

ولا تعذلانِي واعذرانِي فقلَّما***يردُّ عنَّاني عن عليَّة ناصحُ

كتمتُ هواهَا ثم برحَ بي الأسَى*** وكيف أطيقُ الكتمَ والدمعَ فاضحُ

(بن منصور، 1365، صفحة 85)

ويقصد بصيغة المثنى هنا: تلمسان وأبو حمو موسى الملك. فطوحوا بابن خميس في تلمسان فلم يكن على علم بكل ما حدث له، فألم الفراق طغى عليه وطال عنه الحال، يقول " بحر المتقارب":

وطوحُ بي عن تلمسانَ ما***ظننتُ فراقي لها أن يتاحَا

(بن منصور، 1365، صفحة 93)

يحن شاعرنا إلى تلمسان إذا هبت ريحا ويبكي عليا، فهو يموت عطشا لشدة الشوق، ويتشرب شوقا لدرجة الامتلاء لأنه بعد عنها مُكرها ومُرغما، يقول "بحر المتقارب" :

أحنُّ إليك إذا سفتْ ريحًا***وأبكِي عليك إذا ذقتْ راحَا

وأفنَى ألتياحا إليك وكمْ***أشحتْ بوجهِي عنك انتِشاحَا

(بن منصور، 1365، صفحة 90)

فلم يبخل شوقا عن تلمسان وهو في الغربة، يواصل قائلا:

فلمْ يلف دجن انتحابِي شحيحًا ***ولمْ يلقَ زندَ اشتياقي شُحاحَا

(بن منصور، 1365، صفحة 90)

ويشخص لنا الشاعر أبو حمو موسى تلمسان في صورة المرأة التي بعث إليها رسالة، يعبر فيها عن حبه وشوقه لها وهو في الغربة. وكأنه يخاطب في مخيلته فتاة حسناء، ويتغزل بها ويتلطف بها، مفتونا بذات الخال، ويتعذب بجفاهَا القاس، يقول "بحر البسيط":

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

كتَمتُ حبّي فأفشَى الدَّمعُ كِتماني***وزادَ شوقِي على قيسَ وغيلانَ
غنّي فُتنتُ بذاتَ الخالّ يا خولِي***وعذبت بجفاهَا العاشقُ العانِي
(حاجيات، 2011، صفحة 215)

فأجابته قائلة "بحر البسيط":

قالتْ وحقَّ هواكَ اليومَ ما نظرتْ***عيناكَ عينِي إلا ذبتُ من شأنِي
الحبُّ من شيمتِي والوجدُ معزفَتِي***والصبرُ نافلتِي يا آل زيّانَ
إنيّ وحقَّ حياةَ الحبِّ ما اكتحلتْ*** واللهُ بعدَكم بالنّومِ أجفانِي
ولا شغفتُ بحسنِ غيرَ حسنِكم***ولا أخذتُ عليكم في الهوَى فانِي
(حاجيات، 2011، صفحة 215)

يبدو أن حبيبته تبادله الشعور نفسه، فهي متبوله بحبه، ذائبة في شوقه، الحب من شيمتها والوجد لحنها ومعزوفتها، والصبر ما تبقى لها بعد بني زيان، مكتلحة عطشانة، مشغوفة بحبك فقط، فأنت الحب والهوى الوحيد. فهذا النص الشعر يحمل في طياته صورة خيالية رمزية عبرت عن الحب الصادق الذي يكنه الشاعر لعاصمة المغرب الأوسط.

ب-الحنين إلى ساقية الرومي(أو ساقية النصراني، بوماريا: من منتزهات تلمسان، وتعرف بأشجار التفاح الجميلة وهي مقصد للعائلات التلمسانية):

فكم من ليلة وكم من عشية وكم من يوم غدا وراح يتأرجح حبا وتدللا على ضفاف ساقية الرومي، ذات المنظر الجميل والماء الصافي، يقول "بحر الطويل" :

لساقيةِ الرُّومي عندِي مزيةٌ *** وإنْ رغمتْ تلك الرَّوابي الرواشحُ
فكمْ لي عليها من غدوٍ وروحةٍ***تساعدُني فيها المنَى والمنائحُ
(بن منصور، 1365، صفحة 86)

وهو سارح في بساتينها وعينه جامحة على ميادينها الخلابة، تهفو كل أفكاره وهو يستعمل الطيور ليترجم عواطفه يقول "بحر الطويل" :

فطرفِي على تلكَ البساتين سارحُ*** وطرفِي على تلكَ الميادين جامحُ
تُحاربُها الأذهانُ وهي ثواقبُ*** وتهفُو بها الأفكارُ وهي رواجحُ
وظباءُ مغانيها عواطُ عواطفٌ***وطيرُ مجانيهاشوادُ صوادحُ
(بن منصور، 1365، صفحة 86)

ت-الحنين إلى قرية العباد:

تقع قرية العباد العتيقة في شمال المدينة، «على سفح جبل شديد الانحدار» (بوعزيز، 2009، صفحة 116)، كانت مقصدا للثوار ومكانا للزهاد والمتصوفين، قصده المولى أبي مدين الغوث قادما

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

من اشبيلية، فتوفي في الطريق إليه فدفن فيه عام 596هـ، فسمي الحي باسمه وهو معروف الآن بسيدي بومدين.

وبناءً على هذا فإن القارئ لديوان ابن خميس يلحظ ورود لفظة العباد كثيرا في المدح والوصف والآن في الحنين، وهذا دليل على تصديق الشعراء للأولياء الصالحين، واستلهامهم به، فقد "أثارت (...)، أسرابا من الذكريات التاريخية الإسلامية" (قوراري، عدد 18 جانفي 2016، صفحة 353) لأنهم وجدوا فيه ثغرة تخلصهم من ألم الغربة، سواء كانوا في تلمسان أو بعيدين عنها.

فيرسل لها الشاعر كل يوم تحية تفوح مسكا، وصورة ابن شعيب كالتاج تزيد من جمال القرية، فالقلوب متضامنة معكم وكأنها بجوارك لكن الجسوم بعيدة عنك تتذوق ألم الفراق، يقول "بحر الطويل":

على قريةِ العبّادِ منّي تحيةً***كما فاحَ من مسكِ اللطيمةِ فائحُ

وجادَ ثرى العرفين ديمةٌ***تغضُّ بها تلكَ الرُّبى والأباطحُ

إليك شعيبُ بن الحسين قلوبَنا***نوازعُ لكنَّ الجسومِ نوازحُ

(بن منصور، ع، 1365 م، 86)

وفي صورة أخرى يشكره على ما قدمه لتلمسان وأهلها، يقول "بحر الطويل":

سعيْتَ فما قصَّرتَ عن نيلِ غايةِ***فسعيَكَ مشكورُ وتجرك رابحُ

(مؤلف مجهول، 1363م، 286)

وفي مماثلة أخرى يذكر الشاعر ابن يشت جيرانه في قرية العباد الذين حفظوا له عهد الهوى وضيعت أسراره من جراء النهب، فهو متشوق لهم وفخور برؤيتهم، يقول "بحر الرجز":

أمٌّ جيرة للعبَّاد قد حفظُوا لنا***عهدَ الهوى أمْ ضيعت أسرارهُ

فكمَ وإنَ بانوا وسط قرارِهم***أملُ الشَّوقِ وأمنه وفخارهُ

(مؤلف مجهول، 1363م، 286)

ث-الحنين إلى شلالات الوريط:

يبعد عن مدينة تلمسان بسبعة كيلومترات، يقع في منطقة جبلية، ويعد من أعلى شلالات الجزائر. فإن نسي شاعرنا لا ينسى وقوفه على الوريط وهو يشم رائحة زكية تنبع من روضه الخلاب، المطل على الغدير الصافي وكأنه صفيحة من بعيد، يقولك "بحر الطويل":

وإنْ أنسَ لا أنسَ الوريطُ ووقفةٌ***أنافحُ فيها روضهُ وأناوحُ

مطلاًّ على ذاكَ الغديرُ وقد بدتْ***لإنسانِ عينِي من صفاهُ صفائحُ

(بن منصور، 1365م، صفحة 86)

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

ويتساءل قائلا: أماؤك أم عيني؟ وكأنه لا يصدق ما تراع عيناه من شدة صفاء الغدير وهو سكران طافح بحب بلدته سائحا بين بساتينها؛ سارح في عبَابها؛ وكأنه يخاطب هذه الأماكن الصامتة، فهو يصور لنا محادثة شيقة بينه وبين محبوبته، فيظهر في صورة العاشق الولهان هياما بامرأته الوحيدة في الغرب الجزائري ولما لا في القطر الجزائري.

ويشعر بقرحة في قلبه زخرفت شوقا غائما وهو شاهق عليها سافح الدمعة، يقول "بحر الطويل":

أماؤكَ أم عينِي؟ عشيَّة صدَّقَت***عليهِ فينا ما يقولُ المكاشحُ

لئن كنت ملآيا بدَمعي طافحًا***فإني سكرانَ بحبّك طافحُ

وإنْ كان مُهري في تلاعكِ سائحًا***ذاك غزالِي في عبابكِ سايحُ

قراحٌ غدا ينصبُّ من فوقِ شاهقٍ***بمثلِ حلاه تستحثُّ القرائحُ

(بن منصور، 1365، صفحة 87)

فعن شوقه كاتم وعن دمعه سافح، فهو يظل معتكفا صائما عن النساء، ضيق الصدر بائع لرشاده كثير الحسد، فهو عاشق لتلمسان، يقول "بحر الطويل":

أما وهوَى من لا أسمّيه إنَّني***لعرضِي كما قالَ النصّيحُ لناصحُ

أبعدَ صيامِي واعتكافِي وخلوتِي***يقالُ فلانٌ ضيّقُ الصَّدر بائحُ

أيُّ مقالٍ ليس فيه حاسدُ***وأيُّ مقالٍ ليس لِي فيه قادحُ

(بن منصور، 1365، صفحة 87)

إن المتأمل في هذه النصوص الشعرية يلحظ تفوق عنصر الماء على شاعرنا، وعلاقة الدال بالمدلول عزفت على قيتارة طبيعية حنينية، أنغامها أنهارا وشلالات ومياه تطرب السامع بألحانها وتريح القلوب بصفائها.

ج-الحنين إلى أباطح الصفصاف (مكان للتنزه):

يسير بنا الشاعر ابن يشت إلى أباطح وادي الصفصاف الذي تسيل ماءه متفجرة الحق في أنهاره، روضه صارم شيد للأفراح فقط، يقول "بحر الطويل":

أمْ أبطحُ الصَّفصافِ سالَ بماءه ** فجرتْ بحقّ في الحمَى أنهارهُ

روضٌ كان النهرُ فيه صارمُ***قد شيمَ للأفراحِ منه غرارهُ

(مجهول، دت، صفحة 286)

ح-الحنين إلى سوق البز*:

ننتقل مع الشاعر من ضواحي تلمسان لندخل إلى وسط المدينة وهو سوق القيسارية اليوم، الذي تركه لا عن تهاون بل مرغم عن نفسه، فراح يتذكر كيف كان يمشي بين أرجائه وقلبه سائح فيه

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

سارح، طامع في ولاءه ينتظر إشارة منه وهمة فيه، فمتى تنقضي ديوني لأعود إلى بلدي، فقد وجهت اعتذاري لهم، يقول "بحر الطويل" :

تركتُ سوقَ البرِّ لا عنْ تهاون***وكيفَ وظبْيي سائحُ فيك سارحُ

وإنِّي وقلبِي في ولائِكِ طامعُ***وناظرُ وهمِي في سماطكِ طامحُ

أيأهلُ ودِّي والمشيرُ مؤمنُ*** أتقي ديونِي أم غريمِي فالحُ

وهل ذلك الظبيُ النصاحي للذي*** يقطعُ من قلبي بعينِه ناصحُ

كنيتُ بها عن عناءٍ وحشمةٍ***ووجهُ اعتذاري في القضيةِ واضحُ

(بن منصور، 1365، صفحة 88)

خ-الحنين إلى أيام الصبا:

كيف ينسى شاعرنا أيامه التي كان فيها واقفا لاهيا في أحد معالمها-معاهد الأنس- التي خربت ودمرت أيام المرينيين والتي لطخت فيها ألواحها، وهو سكرانا من الوجد غير مشغول إلا بحبها شبه اشتايقه بورق الرند الذي يتخذ من شجرة العفار، يقول:

معاهدُ أنسٍ عطِّلتْ فكأنَّها***ظواهرُ ألفاظٌ تعمدها النسخُ

وأربعُ آلاف عفَا بعض ءايها***كما كان يعرُو بعض ألواحِنا اللطخُ

فمن يكُ سكرانا من الوجدِ مرّة***فإنّي-طولَ الدّهر-منه الملتخُ

أأنسَى وقوفي لاهيًا في عراصِها***ولا شاغلَ إلا التودّع، السبخُ

(بن منصور، 1365، صفحة 96)

وهو يتخيل نفسه يمشي في أرجائها، مشبه نفسه بطائر الرخ، وهو يعدوا ويبعد مثل ولد الظبي رافعا رجلا ويمشي على الأخرى، ومشبها قيامه كما ينهض الفرخ. وهو في مقتبل العمر وفي فترة الشباب كأنه أردشير بن بابك لا يمتلك سوى الشباب، يقول "بحر الطويل":

وإلاَّ فاختيالي ماشيًا في سماطِها***رخيًّا كما يمشِي بطرنه الرخُ

وإلاَّ فعدوِي مثلَ ما ينفرُ الطلا***وليدًا وحجلَى مثلَ ما ينهضُ الفرخُ

كأنِّي فيها أردشيرُ بنُ بابك***ولاَ ملك إلاَّ الشبيبَة والشرخُ

(بن منصور، 1365، صفحة 97)

فالشوق يقتل الشاعر، وهو يتذكر معاهده الأولى وأيام الأنس التي صفت أكدارها، يقول "بحر الطويل":

فمتَى ذكرت معاهدِي بعنائِها***وزمانُ أنسَ قد صفتْ أكدارهُ

(بن منصور، 1365، صفحة 97)

فيرسل أبو حمو سلامه مع نسيمات الصبا إلى والده، يقول "بحر الطويل":

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

فأبلغْ سلامِي يا نُسيْماتَ الصَّبا***نحو الشقيقِ الوالدِ المتفصلِ

(مجهول، دت، صفحة 286)

د-الحنين إلى ليالي الأنس:

ويتذكر الشاعر عهده وهو في مقتبل العمر في تلمسان المحروسة، حيث النقاء والصفاء والطهارة فلا يوجد دنس ولا أجين الماء، يقول "بحر الطويل" :

وعهْدِي بها والعمرُ في عنفوانِه***وماءُ شبابي لا أجينَ ولا مطخُ

(بن منصور، 1365، صفحة 96)

إلى أن يقول متغنيا بليالي الأنس التي قضاها في بلدته:

قرارةُ تهيامٍ ومغنَى صبابَة***ومعهدُ أنسٍ لا يلذ به لطخُ

ليالي لا أصغَي إلى عذل ِعاذلِ***كأنَّ وقوعُ العذلِ في أدنى صخُ

(بن منصور، 1365، صفحة 96)

فهذه الأبيات ترجمت بصدق المعاناة التي عاشها وهو في الغربة، فالحنين كما ذكرنا سالفا هو "الألم النفسي الذي يتوسدونه كل ليلة بعيدا عن أوطانهم وعوائلهم وبيوتهم." (طاطاش، العدد 28 ديسمبر 2007، صفحة 155).

فكم من ليلة قضاها الشاعر المغمورة بالأمن والمني روض يانعة أشجاره، وكم من حاجات ومنافع قضيتها لينتج منها المنى، يقول:

كم لِيلِ وصلٍ بالمنَى قضيتُه***في دوحِ روضٍ ينعت أشجارهُ

ومآربُ بلغتُها في مصهرِ***طلعتْ علينا بالمنَى أقمارُهُ

(مجهول، دت، صفحة 286)

يبدو أن شاعرنا كان ذو مصالح يكرم الناس للمصلحة والمنفعة لا للمحبة.

ذ-الحنين إلى دياره الأولى:

ذ.1-صورة المنزل الأول:

فمازال يتشوق لمنزله الأول بتلمسان، ويصبر نفسه على فاجعته، فيتساءل قائلا: هل أنسى بلدتي بعدما يمر بي العمر؟، يقول "بحر الطويل":

فيا منزلاً نالَ الردى منهُ ما اشتَهى***ترى هلْ لعمرِ الأنسِ بعدك إنساءُ

(بن منصور، 1365، صفحة 64)

ذ.2-صورة الدير:

متذكرا الدير الذي لطالما طاف حوله وطرق بابه وكلابه تهر من شدة البرد، وعساسه قد نام ويهوم به البئيس، يقول "بحر الطويل":

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

ولمْ أطرقْ الدّيرَ الذي كنتُ طارقًا***بليلٍ وبدرا الأفقِ أسلغُ مسناءُ

أطيفُ به حتى تهرُّ كلابُه***وقد نامَ عسّاسُ وهو سناءُ

(بن منصور، 1365، صفحة 64)

ذ.3-صورة درب حلاوة، مغيلة*:

ينادي الشاعر داره بدرب حلاوة في صورة المريض الذي يستغيث الأطباء طالبا النجدة من هذا البلاء، فلا للشراب لذة ولا للطعام طيبة، فهو مريض بحها، يقول "بحر الطويل":

فمَا لِشرابي في سواكِ مزازةٍ *** ولا لطعامِي دون بابكِ إمراءُ

وياداري الأولَى بدربِ حلاوةٍ***وقد جدعيث في بلاها ورداءُ

(بن منصور، 1365، صفحة 65)

فهو يحن إليها مثلما تحن الناقة المسنة لأبنائها، يقول:

أحِنُّ لها ما أطَّت النّيبُ حولها***وما عاقها من موردِ الماءِ ظماءُ

(بن منصور، 1365، صفحة 65)

ثم يسير بنا إلى الحي الذي كان يسكنه، وهو يتذكر أيامه بها التي حيلت وانمحت جراء الاغتصاب على أيدي الناهبين، يقول:

وداري بها الأُولى التي حيلَ دونها***منارُ الأسى لو أمكنَ الحنقُ اللَّبخُ

(بن منصور، 1365، صفحة 96)

فبذكر الديار كأنه يرمز إلى الأهل والأقارب فهو يتصور طفولته فيها وكيف كانت عامرة بناسها، يسودها السلم والأمان ويغمرها الحب والاحترام فمدينة تلمسان معروفة بكرمها وحسنها.

ر-الحنين إلى المدرسة:

عند ذكرنا للمدرسة نذكر بالضرورة أصدقاء المدرسة، فهما يرتبطان ارتباطا طبيعيا، فإذا حن للديار يحن إلى الأقارب والأهل وإذا حن للزوايا والكتاتيب والمدارس يحن عفويا إلى زملاء المدرسة.

فيحن الشاعر إلى تلك الأيام التي مضت بسرعة، أيام الصبا والشباب والمال والترف، فهو يتشوق لسماع صوت الأقلام على القرطاس، ومتشوق لسماع حركة الكعاب، ومتشوق للعب معهم ومداعبتهم، فهم نعم الأصدقاء، يقول "بحر الطويل":

مضوا مَضُوا ومضَى ذاك الزَّمان وأنسَه***ومرَّ الصّبا والمالُ والأهلُ والبذخُ

كأنْ لم يكنْ يومًا لأقلامِهم بها***صريرٌ ولم يسمعْ لأكعبِهم جنخُ

ولم يكُ في أدواجِها من ثنائِهم***شميمٌ ولا في القضبِ من لينِه ملخُ

ولا في محيَا الشمسِ من هديهم سنًا***ولا في جبينِ البدرِ من طيبِهم ضَمَخُ

(بن منصور، 1365، صفحة 98)

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

وكأن كل هذه القصص لم تحدث فمضت وانمحت وبقيت سوى الذكريات، ذكريات الأصدقاء الطبيين، شمس الهداية وطيبة البدر، زملاء الدين والأدب والخصال الرفيعة.

ز-الحنين إلى إخوانه:

صور لنا الشاعر إخوانه في صورة جآذر الرمل في جمالها وحسنها واشتداد القوام، عن كل فحشاء ودنس ومنكر بعيدين، شأن هداية وكرم، منصبهم في العلا، يقول "بحر الطويل" :

وإخوانُ صدقٍ من لداتي كأنَّهم***جآذرُ رملٍ ولا عجافَ ولا بزخُ

وعاةٌ لما يلقَى إليهم من الهدَى*** وعن كلِّ فحشاءٍ ومنكرةٍ صلخُ

همْ القومُ كلَّ القومِ سيَّان في العلاَ***شبابِهم الفرغان والشيخةُ السلخُ

(بن منصور، 1365، صفحة 98)

فقد رحل الشاعر عن الديار وخاطره لا يزال في ربوعها وفي مجالس أهلها وربعها، أيام تسودها الراحة ويغمرها السرور، فكم من يوم قطعها في دار الأحبة والسعد يدور به، يقول "بحر الطويل" :

فقدْ رحلتْ عن الدِّيارِ وخاطرِي***في ربعِها تبدُوا به أفكارهُ

هلْ لي إلى تلكَ المجالسِ رجعةً***طوبَى لمن دارَ الأحبةِ عمارهُ

أو يومَ أنس في دارهِ قطعتها***دارتْ علينا للسُّرور عقارهُ

(مجهول، دت، صفحة 285)

فقلبه متيم بأبنائها يقول "بحر الرجز":

حسْبي تلمسانَ وحسنُ عهودُها***فالقلبُ في أبنائِها إسهارُ

(مجهول، دت، صفحة 287)

هل يعود ذلك العهد بعدما انقضى، هل يلي عودة بجوار الأحبة، هذه هي أبرز الأسئلة الواردة في نص شاعرنا، فهو لم ينس يوما وقوفه معهم، يقول "بحر الكامل":

وبأهلِ ذاك العهدِ بعد قضائِه*** من عودةِ أمِّ هلْ يعودُ جوارهُ

أم هلْ لأيامٍ بلغها مضتْ*** من عطفِه أم هل يرى مِضْمارهُ

(مجهول، دت، صفحة 287)

يتغرب الوادي آشي في تلمسان فهو وحيد بالرغم من أن لديه العديد من الأصدقاء والأحباب، يقول "بحر المتقارب":

غريبٌ في تلمسانَ وحيدٌ***من الأحبابِ ليس له مشاكلُ

وكمْ فيها من الأصحابِ لكن*** عدمتُ فيها المناسبُ والمماثلُ

(المقري، دت، صفحة 308)

فلا يوجد صديق يناسبه ويماثله، ونلمس في هذين البيتين نبرة حزينة فهو يشعر بالوحدة بعدما طلق بنت ابن مرزوق* ولأمه الكثير من أصحابه. وبذكر أغراض المدح والرثاء والفخر والوصف والحنين، فلا يفوتنا أن نعرج على غرض الهجاء الذي عثرنا عليه ونحن نتفحص المصادر القديمة، هذا الغرض الذي نظم لهجاء تلمسان من شاعر زياني.

نزيل على تلمسان، هجاها ببعض من مقطوعات لا تتعدى بعض القصائد، يقول متضجرا بالسكن بتلمسان" بحر الطويل":

تلمسانَ أرضَ لا تليقُ بحالِنا***ولكنْ لطفَ اللهِ نسألُ القضَا

وكيفَ يحبُّ المرءُ أرضًا يسوسُها***يهودٌ وفخارٌ ومنْ ليسَ يرتضَى

(المقري، دت، صفحة 307)

يعرب عن الشعر عن استيائه لأرض تلمسان، فهي لا تليق بحاله، فحكامها يهود ومن ليس يرتضى، لكنه يتلطف بقضاء الله وقدره، وهذه إشارة أيضا لهجاء ملوكها.

خاتمة:

لقد تولدت عن هذه الدراسة الموجزة التي حاولت فيها استظهار مجموعة من صور الحنين إلى الوطن من خلال بعض الشعراء الذين ذاع صيتهم في العهد الزياني، وهي على النّحو الآتي:

إن حنين الشعراء كان جراء الحب الشديد لتلمسان وطبيعة تلمسان، فالحنين يوحي إلى الطبيعة، ولا سيما بعد غربة ابن خميس الذي تربع على عرش الحنين.

ترك مدينته مرغما، فحنينه وشوقه لها أعرب عن نفس صادقة، ترجمت لنا لغة حنينية، وكتبت لنا سناريو معنون بألم الفراق بطلتها، مدينة تلمسان لؤلؤة المغرب العربي وجوهرة الغرب الجزائري، وعاصمة الثقافة والفن.

كما تمثلت صورة الحنين في كل ما يتعلق بتلمسان من قريب أو بعيد، فكانت مثالا للأب والأم والمرأة التلمسانية.

فهذه الحاضرة صورة فنية استطاعت أن تجذب بإرثها الطبيعي شعراء من داخل الجزائر ووافدين عليها، وهذا دليل على أهمية مدينة تلمسان في الوسط المغاربي.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

قائمة المصادر والمراجع

- أحمد المقري. (دت). *أزهار الرياض في أخبار عياض ج3.دط*. فضالة.
- أم الخير تيجيني. (المحور الأول سبتمبر 2018). مظاهر الحنين في شعر الشاعر القروي(رشيد سليم الخوري) الحنين إلى الوطن أنموذجا. *أنتربولوجيا الفكر والأدب* ، 49.
- الجاحظ. (1986). *الحنين إلى الأوطان.ط2*. لبنان: دار الرائد العربي.
- السعيد قوراري. (عدد 18 جانفي 2016). الحنين إلى الديار المقدسة في الشعر الأندلسي. *مجلة كلية الآداب واللغات* .
- سعيدة طاطاش. (العدد 28 ديسمبر 2007). الحنين إلى الوطن وعلاقته بدافع الانجاز الدراسي لدى الطلبة العرب بجامعة بغداد. *مجلة العلوم الإنسانية* .
- عبد الحميد حاجيات. (2011). *أبو حمو موسى حياته وآثاره.طبعة خاصة*. الجزائر: علم المعرفة.
- عبد الوهاب بن منصور. (1365). *المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس.ط1*. تلمسان: ابن خلدون.
- مجهول. (دت). *زهر البستان في دولة بني زيان.دط*. تلمسان.
- يحي الجبوري. (2008). *الحنين في الشعر العربي -الحنين إلى الأوطان-ط1*. الأردن: دار مجدلاوي.
- يحي بوعزيز. (2009). *المساجد العتيقة في الغرب الجزائري.طبعة خاصة*. دار البصائر.